من براجنا الدراسية والقضاء على هذا التنازع فى النفوذ العقلى فى معاهدنا ، وتحرير اللغة العربية بذلك من أحد عناصر المنافسة التى لامبرر لها ، والتى ما زالت تشعر بوطأتها . بل نرى من الخير ومن الواجب معا أن تقاوم البلاد كل ألوان هذا الغزو الثقافى الأجنبى ما استطاعت خصوصا ما كان منه ستاراً لبث نفوذ معين يتخذ من آن لآخر وسيلة لتحقيق مختلف الغايات والمصالح ؛ ولسنا نفرق فى ذلك بين غزو وغزو ونفوذ ونفوذ ؛ فالفرنسى والايطالى والألمانى كالانجليزى يتخذون من بلادنا مسرحاً لهذه المنافسات الخطرة ؛ وإنه لمن خير مصر وسلامها أن تقاوم هذا الغزو المعنوى دائما وأن تعمل على تحطيم عناصره وأسلحته ما استطاعت

محمد عبد الله عنان
المحامى

كيف نبعث الأدب

وكيف نتروّاه ؟

للأستاذ عبد العزيز البشرى

عرضه وجدوى تاريخه :

لا شكّ فى أن من أهمّ نهضاتنا التى نتوائب فيها الآنَ ومن أبرزها نهضةَ الآداب : فلقد زاد عددُ المُقبلين على الأدب العربىّ والذين يُعالجونه فى هذا العصر بقدْر عظيم ، كما أُعليَت مكانته ، وأَبْعدت أغراضه ، وتلوّنت فنونه . وبعد أن كان يَضطرِب فى أضيق مضطرب ، ويَتقلّب فى أفْسل المعانى ، ولا يستشرف إلاّ للضّئيل التّافه من الغايات من المديح الوضيع الذليل ، ومن الغَزَل المصنوع المتكلّف ، ومن فَخر مكذوب لا يَمُتُّ إلى مَفاخر العصر بسبب ، ومن وَصف مُفترًى على الطبيعة ، فلا هو مما يَنتظمُ الواقع ، ولا هو مما يَخلَع عليه الخيالُ الصّناعُ صورةَ الواقع ، ومن هَجوٍ تتلقّط فيه المعايبُ والمقاذِر من هنا ومن هنا لتُعفِر بها وجوه الناس عَفراً . ونحو ذلك مما كان يجول فيه الأدب فى الجيل الماضى ، على وجه عامّ ، وتَتجرّد فى طلبه والتشمير له جَمهرةُ المتأدّبين . على أنه لم يكن له أىّ حظٍّ من وُجدان ولا من تَجيَشان عاطفة ، وكيف له بهذا وهو لم يَذُكْ له حسّ ، ولم يَخفق به قلب ، وإنما أمرُه إلى حركة آلية لا تكاد تعدو فى مَدَهبها تلك الحركةَ التى تَنبعث بها الصناعاتُ اليدَوية . إلى أنّ تلك المعانى ، إذا صدق أن مثل ذلك مما نُطلق عليه كلمةُ المعانى ، لقد كانت ، فى الكثير الغالب ، تُجلَى فى صوَر مُترهلة متزايلة ، لا يقوّى بناءَها أو يشدّ مَتنها شىءٌ من جزالة اللفظ ومَتانة الرّصف ، وتلاحم النسج ، ولا يَجتمع لتربيتها وتهييجها شىءٌ من حسن الصياغة وإشراق الدّيباجة وجَمال النظام !

ولقد قَيدتُ هذا (بالكثير الغالب) لأن ذلك الجيلَ الماضى لم يَخلُ من كتابٍ ومن شعراء أغلوا حظّ الأدب ، ففسحوا فى أغراضه ، وأبعدوا فى مطالبه ، وحلقوا بمعانيه ، وأبدَعوا فى البيان ، فاتسق لجلالة المعانى شرفُ اللفظ ، وبراعةُ النظم ، وإحكامُ النسج ، وكذلك استوى من المنظوم والمنثور كليهما كلامٌ يترَقرق ماؤُه ، ويَتألق سَناؤُه . ورحم الله ابراهيم المويلحى وابراهيم اللقانى وأضرابهما فى الكتاب ، ومحمود سامى البارودى واسماعيل صبرى فى الشعراء ، فقد هَدَوا إلى حُسن البيان السبيل

* * *

وإذا كان الأدب يَتمثل لأدباء هذا الجيل فى صورة أبدعَ وأروعَ من الصورة التى كان يَتمثل فيها لسَلَفهم القريب ، كما أدركوا هم أن له مهماتٍ أوسعَ أفقاً وأبعدَ مَدًى من تلك التى كان يدور فيها فى ذلك العهد ، حتى لقد أصبح يتقلب فى جُلّى أسباب الحياة ، بل لقد تجاوز أو كاد يتجاوز أفقَ الكماليات البَحت إلى موطن الضرورات فى الحياة الاجتماعية — إذا كان المتأدبون قد أصبحوا يُحلّون الأدبَ هذا الموضع ، ويَتمثلونه على هذه الصورة ، فذلك لأنهم طالعوا أدبَ الغرب ورأوا مايتصرّف فيه من مختلف الفنون ، وما يتجرّد له من جسام المطالب

لقد أصبح الأدب وسيلة من وسائل تنعيم النفس وتلذيذها بما يجلو عليها من صُور الجمال ، وبما يُرهف من الحسّ حتى يتغطن من ألوان المعانى إلى كل دقيق وإلى كلّ بديع ، كذلك لقد تبسط الأدبُ واسترسلت آثاره إلى كثير من الأسباب العامة ،

على ما تقدمت الاشارةُ إليه ، فعظم بذلك أمره ، وجلّ في عيش الحضارة خطبه ، وكذلك أضحى للبارعين من أهله في الغرب من الشأن مالا يكاد يوصل به شان

ولقد زعمتُ لك أن الذي بعث تقدير أبناء العربية للأدب هذا المبعث ما جُلي عليهم من أدب الغرب وما طالعوا من بعيد آثاره في شتى الأسباب ، فراح كثيرون منهم يتأثرونه ، ويتصرّفون بالبيان في مثل ما يتصرّف فيه من مختلف الفنون . على أن كثيرين من هؤلاء الكثيرين قد انقطع جهدهم دون هذه الغاية فلم يظفروا من الأمر بجليل . ولا شك أن ذلك يرجع إلى أنهم ، في غالب الأحيان ، إنما ينقلون إلى العربية ما يتهيأ لهم نقله من آداب الغرب على الصورة التي يستوي فيها لأهله ، لايحاولون ، أو لعلهم يعجزون إذا هم حاولوا ، أن يطبعوه على ما يألفه الخيال الشرقيّ ، ويستريح اليه الذوق العربيّ ، وتسلس له بلاغات العرب !

ولقد يكون هذا من أثر الافتتان بأدب الغرب ، والتجرّد في محاكاته وتقليده من جهة ، وقلة المحصول من فقه العربية ورقة الزاد من ألوان بلاغاتها من جهة أخرى

وبعد ، فما نحسب أن هناك من ينكر على الأدب العربيّ جليل خطره في عهد الجاهلية وفي قيام الدولة العربية في الشرق والغرب ، وأنه كان ، في الجملة ، يؤدي من مطالب الحياة ما يؤديه الأدب الغربي اليوم ، وأقول (في الجملة) لأن الأدب قد تشعبت في هذا العصر فنونه ، وتطاولت آثاره إلى كثير لم يلتفت اليه في الزمان القديم ، ولعله لو ظلت دولة العرب قائمة ، وظلت حضارتهم في اطرادها ، ما تقاصر اليوم عن شأو الأدب الغربيّ ، بل لعله كان يسبقه إلى كثير ! . ولو قد عني النشء من متأدبينا بدراسة هذا الأدب ، وخاضوا في أمهات كتبه ، وأطالوا تسريح النظر فيما أثر من روائعه ، لرجعوا إلى نفوسهم بأنه أدبٌ عظيم كلُّ عظيم ، أدبٌ يمتع حقاً وينعّم الروح حقاً بما ينفض من عاطفة معتلجة ، ويصوّر من دقيق حسّ ، ويتدسس إلى ما استكن في مطاوي الضمير ، إلى ما أصاب من المعاني البارعة ، وما تعلق به من الأخيلة الرائعة ، وما تصرّف فيه من كل دقيق وجليل في جميع الأسباب الدائرة بين الناس . ما ترك جليلاً من الأمر ولا دقيقاً إلاّ مسه وعرض له وعالجه بالتصوير والتلوين ، وكل أولئك يصيبه في مصطفى لفظ ، ومحكم نسج ، وبارع نظم ، ودقة أداء ، وحلاوة تعبير !

على أن الأدب العربيّ ، مع هذا لقد طالما حال في بعض الأسباب العامة وساهم في الأحداث السياسية والقومية والمذهبية بقدر غير يسير ، ومهما يكن من شيء فهو أدبٌ واسع الغنى ، رفيع الدرجة ؛ بل إنه لمن أغنى الآداب التي قامت في العالم ومن أعلاها مكانا

والواقع أنه قد انقبض بانقباض الدول العربية وضعُف بضعفها ، فجعلت تضيق أغراضه ، وتتواضع معانيه ، ويجف ماؤه ، ويتجلجل بناؤه ، حتى صار إلى ما صار اليه وظل عاكفاً عليه ، إلى ما قبيل نصف قرن من الزمان

ولا يذهب عنك أنه في فترة انقباضه الطويلة قد انبعثت في الغرب حضارة جديدةٌ جعلت ، على الزمن ، تتبسط وتتناول وسائل الحياة دراكاً حتى بلغتْ شأواً بعيداً . ومما ينبغي أن يُلتفت اليه أشد الالتفات في هذا المقام ، أن هذه الحضارة قد أولت أجلّ عنايتها للشئون المادية ، فكان حظُّ العلوم الطبيعية والكيميائية منها عظيما ، فاستكشفت أشياء كثيرة ، واخترعت أشياءُ كثيرة ، حتى كاد الانسان لايتناول شأناً من شئون الحياة إلا بسبب طريف . وبذلك كثرت الآلات المادية كثرة تفوق حدود الوصف ، وهي تطرد في الزيادة كل يوم ، إذ اللغةُ العربية جائمةٌ في أخوصها لاتمتدّ بالتعريف عن هذا ، إذا هي امتدّت ، إلا الى قليل ، بل الى أقلّ من القليل

ولقد كان من آثار فقر العربية في هذا الباب أنها حتى بعد نهضتها الأخيرة زَرِمَت في بيانها دائرةَ الأدبيات لانصيب من المحسّات المادية ، إن هي أصابت ، إلا في حرج وفي عسر شديد ! وكيف لها بهذا وليس لها به عهد قريب ولا بعيد ؟ !

وإذا كانت الحاجة تفتق الحيلة كما يقولون ، فقد بعثت النهضة العلميةُ في عهد محمد علي الكبير رفاعةَ وأصحابه الى أن ينفضوا قديم العربية لعلهم يجدون بين مفرداتها وما أثر في كتبها من المصطلحات العلمية والفنية ما يدلون به على ما استوى لهم من جديد في العلوم والفنون ، فاذا أصابوا هذا وإلا عمدوا الى الوسائل الأخرى من النحت والاشتقاق والتعريب . وإذا كان قد اجتمع

لهم فيما نقلوا الى العربية من علوم الغرب وفنونه صدرٌ محمود ، فان ذلك أصبح لا غَناء فيه ولا سداد له ، بعد إذ فترت تلك النهضةُ وخَبت جَذوتها بعد ذهاب مُذكيها المرحوم محمد على الكبير ، بينما تطرد العلوم والفنون فى تبسطها حتى لتخرج على العالم كل يوم بجديد . وهذه الحاجة الملحة ، والتى يشتدّ إلحاحها ويتضاعف كلما تراخت الأيام ، لقد كانت تبعث جماعات الفضلاء الفينة بعد الفينة الى تأليف الجمعيات للبحث والنظر فى تحريك لغة العرب حتى تستطيع أن تتوافى لمطالب الحضارة الحديثة . على أنه لم يُقدر لها النجاح لأسباب لا محل لذكرها فى هذا المقام . فلم يَبق بدٌّ من أن تضطلع وزارةُ المعارف بالأمر ، وبعد لأى قام (المجمع الملكى للغة العربية) ، نسأل الله تعالى أن يمده بروحه ، ويعينه على مهمه جليل المشقة جليل الآثار ، وأن يهديه الى أقوم سبيل !

* * *

لقد استطرد القلم من حديث الأدب الى حديث اللغة ، وماله لا يفعل واللغةُ مادّته وملاكه . وإذا كان أجلّ همه الى المعنويات فليس له عن هذه المادة غَناء ، بل لقد تكون وسيلته وأداته حتى فى التعبير عن أخفى العواطف وأدق خلجات النفوس . على أن أهم ما يعنينا من هذا البحث إنما هو حيرة الأدباء ، أو على تعبير أضبط ، حَيرة بعض من يعانون الأدب فى هذا العصر ، وذلك أن فى مأثور العربية أدباً غنياً سرياً وافى سلفنا العظيم بمطالب الشعور ومطالب الحضارة جميعاً . على أننا نعيش الآنَ فى حَضارةٍ غير حَضارتهم ، ونُعالج من وسائل الحياة غيرَ ما عالجوا . ثم إنه مهما تطبعنا الورائةُ على طبعهم ، وتنضح علينا من أذواقهم وشعورهم وغير ذلك من خلالهم ، فان مما لا شك فيه أن لتطاول الزّمن ، وتغيرّ البيئات ، وتلوّن الحضارات ، وما يجوز بالأقوام من عظيمات الأحداث أثراً لقد يكون بعيداً فى كل أولئك . وأنت خبيرٌ بأن الأدبَ الحقّ إنما يتكيّف بما هو كائن ، ويُترجم عما هو واقع[1] . ومن هذا نجد كل أدب حىّ متحرك فى تطوّر مستمرّ طوعاً لتطوّر العوامل والأسباب..

ولست تلتمس دليلاً على أن الأدب العربىّ إنما كان كذلك فى حياته القوية يخير من أن تستعرض شأنه فى الجاهلية ، وتقلّبه فى جميع الدول العربيــة فى العصور الاسلامية . فلن تخرج من هذا إلاّ بأنه قد تأثر فى كل عصر وفى كل بيئة بقدر ما تغيرّ على القوم من مظاهر الحياة

ومعنى هــذا الكلام أن الأدب العربىّ ، فى أى عصر من عصوره الخالية ، مهما يجلّ قَدرُه وتعظم ثروته لا يمكن أن يُغنينا الآنَ فى كثير من مطالب الحياة إذا نحن اتخذناه على حاله ، ولم نَعدُ ما كان من صوَرِه وأشكاله . وإلاّ فقــد سألنا الطبيعةَ شططا . فهيهات للساكن الجاثم أن يَلحق المتحرّك السائر

وهناك أدبٌ غربىّ دارجَ الحضارةَ الحديثةَ وسايرها خطوة خطوة ، واتّسع لكل مطالبها ، ووافاها بجميع حاجاتها فى غير مشقة ولا عناء . ولا يذهب عنك أننا إنما نتأثر الغرب فى ثقافته وعلومه وفنونه وسائر وسائله ، وهذه سبيلنا إلى ما نَستشرف له من التقدم ومشاكلة الأقوياء ، ولــكن هذا الأدب الغربىّ الذى نُقبل على محاكاته فيما نقبل عليه من آثار القوم ، لا يَتّسق فى بعض صوره لشأننا ، ولا تستريح إليه أذواقنا ، بل إنه قد لا يَستوى فى تصوّراتنا ، ولا يجدى علينا فى كثير ، أضف إلى هــذا عجز بعض نقَلَته سواء فى شعره أو فى نثره ، وقلة محصولهم من العربية ، واضطرارهم ، بحكم ذلك ، إلى إخراجه ، مترجمين كانوا أم محاكين ومقلّدين ، فى صور بيانية شائهة الخلق ، ناشزة على الطبع ، لا تُحسّ إلا مليخةً باردة فى مَذاق الكلام !

* * *

وبعد ، فان ممــا لا يَتقبلّ النزاع أنه لا بدّ لنا من أدبٍ قوىّ سرىّ يوافى جميع حاجاتنا ، ويساير ثقافتنا القائمة ، ويَتوافى لهذه الحضارة التى نعيش فيها ، بحيث تَطمئن به طباعنا ، وتستريح إليه أذواقنا ، شأن كل أدب حىّ فى هذا العالم ، ولعل من أشد الفضول أن نقول إن هذا الأدب لا يمكن إلاّ أن يكون عربياً . ولــكن كيف الحياةُ فى ذلك ؟

ذلك ما نعالجه فى مقال آخر إن شاء الله تعالى ، فلقد طال هذا الحديث ما ؟

عبد العزيز البشرى

(١) قد يحاكى الشاعر أو الكاتب ، لأمر ما ، أدب السابقين . وقد يعمد إلى تصوير عواطفهم وخلجات نفوسهم حتى كأنه يجدها ويشعر بها على نحو ما شعروا ، وأكثر ما يقع ذلك فى الأدب القصصى . على أن الأديب فى هذا مستعير لا أكثر